الدكتور جودت فخر الدين

شكل القصيدة العربية
في النقد العربي
حتى القرن الثامن الهجري

منشورات دار الآداب - بيروت

إلى لطيفة وهدى وعلي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٤

"الكَلام عَلى الكَلام يَدور عَلى نفسِه
ويلتبسُ بعضُه ببَعضِه"

(أبو حيان التوحيدي)

إشارة

هذا البحث، هو في أساسه، أطروحة قدمت الى كلية الآداب والعلوم الانسانية في جامعة القديس يوسف ببيروت، لنيل شهادة الدكتوراه (إختصاص) في اللغة العربية وآدابها، وقد أشرف عليها الدكتور الشاعر أدونيس، وشارك في مناقشتها، بالإضافة إليه، الدكتور متري بولس، والدكتور وليم الخازن. وكانت نتيجة المناقشة أن منح صاحب الأطروحة درجة «جيد جداً».

ويسرني أن أشكر الأساتذة الذين ناقشوا هذه الأطروحة، وبخاصةٍ لما أبدوه من الملاحظات النقدية التي أفدتُ منها كثيراً، وأن أخص بالشكر أستاذي المشرف الذي علّمني الكثير.

المؤلف

المقدمة

ثلاثة أسئلة

بقلم أدونيس

- ١ -

تطرح هذه الدراسة أسئلةً رئيسة ثلاثة: حول بنية القصيدة العربية الكلاسيكية، وحول بنية القصيدة العربية الحديثة ـ لكن بشكل ضمنيّ وغير مباشر، وحول النقد الشعريّ.

- ٢ -

ما شكلُ القصيدة العربية الكلاسيكية؟ أو، بعبارة أكثر دقّةً: ما الشكل الشعريّ في نظرة النقاد العرب القدامى؟

غياب مصطلح «الشكل» هو أول ما يثيره هذا السؤال. فلم يكن النقاد العرب يستخدمون لفظة «الشكل» في كلامهم على مبنى القصيدة. والحق أن هذا المصطلح الحديث تجريدي وفضفاض، بحيث يصح أن يقال في الكلام على هيْكليّة أية مادة أو كتلة. كأنه، إذن، لا يقول شيئاً.

ولو عدنا الى «لسان العرب»، وقرأنا مادة «شَكَلَ» لرأينا أن «الشّكل» تعني الشِّبْه والمِثْل. يقال: هذا من شَكْلِ هذا، أي من ضَرْبِه ونَحْوه. وهذا شكلُ ذلك: أي مثله في حالاته. وهذا أشكل بهذا، أي أشبه. وشَكْل الإنسان مذهبه وقصده. وشكْلُ الشيء: صورته المحسوسة والمتوهَّمة. وتَشكَّلَ الشّيء: تَصوّر. وشَكّلَهُ: صوّرَه.

ليس في هذا كله ما كان يُتيح للناقد العربي القديم استخدام مصطلح الشكل ليشير به الى مبنى القصيدة. هكذا رأيناه يختار مصطلحاً آخر هو **اللفظ** الذي اتخذ اسماً آخر عند الجرجاني هو **النظم**، ثم غلبَ عليها اسم **عمود الشعر**، وفقاً لتحديد المرزوقي.

تستقصي هذه الدراسة معانيَ هذه الأسماء وما تنطوي عليه من أنساقٍ تتعلق بالألفاظ (نسق الحروف مع الكلمات، نسق الكلمات في الجمل، نسق الجُمل) وبالتركيب والنظم، وبالمعنى والغرض. وتصل الى موقف يرى أن ما نسميه، اليوم، بـ«الشكل»، كان يشمل عند النقاد العرب القُدامى أبعاد القصيدة اللفظية والايقاعية والمعنوية، معاً.

قلت: موقف، والأحرى أن أقول: قراءة. وهي قراءة تظلّ سؤالاً مفتوحاً، إذ تتعذر الإجابة عن مثل هذه القضايا إجابةً قاطعةً، نهائية.

- ٣ -

هذه القراءة حديثة، يقوم بها شاعر/ناقد حديث. لذلك، إذ توضح أفقَ القديم، تفتح أفقاً للتساؤل حول الحديث: لا بدّ، في الحالين، من فهمٍ جديد يؤرّخ للقصيدة العربية، وللشعر العربي، تأريخاً جديداً. وترتبط بذلك، عضوياً، هذه الضرورة: دراسة أكثر دقة وإحاطة، لما نسميه بـ«الشعر الحديث»، خصوصاً أن حضوره الغالب يتمثل في تجلّيات «شكليّة».

تتحرّك هذ الدراسة، أساسياً، أوينبغي أن تتحرك، في أفق تساؤل ليّ: هل الخروجُ على نظام الشطرين المتساويين تفعيلياً، يُحقق الخروجَ على المبنى الشعريّ الكلاسيكي؟ أم أن هذا الخروج ليس إلا تنويعاً تفعيلياً، اوتشكيلياً، على جوهرٍ واحد؟ هل الخروج على الوزن يحقق تشكيلاً فنياً أغنى وأكثر جدة مما يحققه التشكيل الوزنيّ؟ هل تكشف «الحداثة» الشعرية العربية عن فهمها الخاطىء لمعنى «الشكل» في الشعر العربي؟ هل هي، بتعبيرآخر، «حداثة قديمة» ـ من حيث أنها تفصل، ضمنياً، بين ما نسميه «الشكل» وما نسميه «المعنى» ـ وذلك في إلحاحها على المظهر الخارجيّ لجسد القصيدة: يجب ان يكون «الثوب» مخالفاً كلياً لثوب القصيدة القديمة، دون ان تتساءل: هل ما يخبئه هذا الثوب «الحديث» أكثر حداثة مما يخبئه ذلك الثوب «القديم»؟

هل تضمر الأسئلة السابقة حقيقة هي ان الحداثة لا تتم بمجرّد الخروج التشكيلي على الأنساق التشكيلية القديمة، وأن «الشكل» أوسع من ان ينْحَدَّ في بناء القصيدة الظاهري، وأنه يشمل الرؤيا ذاتها، والرؤية ذاتها؟ ألا يجب، تبعاً لذلك، أن تفهم الحداثة، لا في منظورات تشكيلية، وزنية أونثرية ـ وإنما من حيث هي أوّلاً، وقبل كل شيء، تجربة جديدة تصدرعن رؤية جديدة للإنسان والعالم، في مقاربة جديدة للأشياء ولغة شعرية جديدة؟

أليس «الشكل» عند الفرزدق، مثلاً، أوجرير «مضمون عصرهما ـ أو «معناه»، أي طبقته

السائدة وثقافته السائدة؟ و«الشكل» عند شوقي، مثلاً آخر، أليس هو في عصره: الطبقة السائدة، والثقافة السائدة؟ و«الشكل» الحديث، «المعنى» الحديث: التفتت، والبلبلة، والضياع، والبحث عن أفق م

إن هذه الأسئلة تؤكد ان الخروج على الشكل ليس مجرد خروج تشكي شاملٌ: من حالة وعي معينة الى حالة أخرى، ومن رؤية إلى رؤية، ومن حس ـ ـية الى حساسية، ومن لغة شعرية الى لغة شعرية، ومن ثقافة وقيم الى ثقافة وقيم أخرى. ومثل هذا الخروج ليس سَهْلاً: إنه يستلزم القدرة الخلاقة المحيطة.

- ٤ -

من هنا تطرح هذه الدراسة سؤالها الثالث حول النقد. فالقصيدة تتكون من طبقات: ذاتية (بمستويات متنوعة، عديدة) واجتماعية (بمستويات متنوعة، عديدة هي الأخرى) وإنسانية ـ كونية. ودراستها نقديا تشبه دراسة طبقات الأرض، جيولوجياً: لا بد لفهمها وتقويمها من الإحاطة بها، في كُلّيتها وشمولها، وفي أجزائها وتفاصيلها.

وهذا مما يحتم إعادة النظر في النقد ـ مفهوماً ودَوْراً، فلئن كان الشعر فنّاً بالمعنى الحصريّ، فإن نقده وتقويمه لا يبدآن من «الأفكار»، كما هي الحال، غالباً، في النقد الشائع، بل من كونه صناعة خاصة: نسيجاً لغوياً، لا صندوق أفكار. ودراسة هذا النسيج ـ المبنى هي وحدها التي تُتيح جلاء ما نسميه بـ«المعنى» أو«المضمون» أو«الرؤيا»، أو«الهدف والغرَض». وهي التي تتيح لنا ان نعرف ما هو أبعد: هل هذا «المعنى» منته، أم غيرمنتهٍ؟ هل يمكن ان يتجدد بحسب القارىء وقراءته وعصره، أم أنه يُسْتَنْفدُ بقراءته الأولى؟ وما تكون، في الحالين، علاقته بذلك النسيج اللغوي؟ وهذه الدراسة هي التي تتيح جلاء الخلل: الانفصال بين «الشكل» و«المضمون» وعلامته الأولى هي رداءة العبارة والتركيب، وابتذالها. وهي التي تتيح لنا أخيراً ان نقوّم مستوى الشعر، وبُعده الإبداعيّ. وهذا يعني أن الخلل ينتفي في الابداع الشعري العظيم: لا انفصال فيه، وإنما هو نسيجٌ موحد واحد: «المعنى» فيه هو «الشكل» و«الشكل» فيه هو «المعنى».

القصيدة في هذا المنظور هي، بدئياً، مبنى أو بنية تعبير: صورة/معنى، معنى/صورة والعلاقة بينهما هي كعلاقة وجه الورقة بوجهها الآخر. فالقصيدة نصّ ـ نسيج، تتجدد بوصفها كُلاًّ لا يتجزأ، وتُقوَّمُ بوصفها كذلك كلاًّ لا يتجزأ.